

محاضرة قاسم أمين وجهوده الفكرية



يعتبر المفكر قاسم أمين أحد أكثر المفكرين اثارة للجدل بين المفكرين والباحثين الذين اهتموا بفكره ودرسوه سواء أيام حياته أو بعد وفاته وحتى يومنا هذا ،اذ انقسموا بين مؤيد لفكره ويرى فيه هذا القسم أحد أكبر رواد الفكر التحرري للمرأة العربية في العالم العربي واعتباره من فتح للمرأة أبواب الحرية والحدثة ،كما كان قسم آخر يرى فيه أحد بؤر المعادية لحاضرنا الإسلامية و تقاليدنا ونقل لأسرنا المحافظة غالبية الأمراض التي أصابة الحضارة الغربية ، واعتبروه من فتح مصر للتغريب الأوروبي.

وأمام هذا الرأيين المتعارضين ، تبقى الإسهامات الفكرية لقاسم أمين تسجل وجودها سواء بالإيجاب او السلب ، فإلي أي حد استطاعت أفكار قاسم أمين أن تجد طريقها إلى المجتمعات العربية بالرغم التحفظ و ردود الأفعال القوية ضدها ؟

حياة قاسم أمين

وُلد قاسم أمين عام 1863م من أب تركي وأم مصرية -، كان والده واليا "محمد بك أمين" واليا على إقليم "کردستان". لكن الإقليم ثار ضد حكم العثماني وتم طرد الوالي ،

عوضته الدولة بإقليم "البحيرة" بمصر، وبعد استقراره بها قرر الزواج بها، وكانت ثمرتهما مولد قاسم أمين، وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة التي كانت تضم أبناء الطبقة الأرستقراطية، ثم انتقل مع أسرته إلى القاهرة، وسكن في حي "الحلمية" الأرستقراطي، وحصل على (الثانوية العامة)، ثم التحق بمدرسة الحقوق والإدارة، ومنها حصل على "الليسانس" وكان أول متخرجيها.

في هذه الفترة تردد قاسم أمين على حلقات دروس "جمال الدين الأفغاني" الذي ازدهرت مدرسته في هذه الفترة، بعد تخرجه مارس قاسم أمين لفترة قصيرة مهنة المحاماة، وما لبث أن سافر في بعثة دراسية إلى فرنسا، حيث التحق بجامعة "مونبلييه"، أنهى دراسته بعد أربع سنوات سنة 1885م، أثناء دراسته بفرنسا أعاد تواصله مع "جمال الدين الأفغاني"، ومدرسته، بل أصبح المترجم الخاص للشيخ محمد عبده في باريس، استغل أمين وجوده بفرنسا ليقرأ لكبار مفكري أوروبا وفلاسفتها حكم "الارشفوكو" وشعر "لامارتين" وفلسفة "فنون" و"رينان" وأعمال "فولتير" و"روسو" و"سبنسر" و"نيتشه" و"داروين" و"ماركس" وغيرهم، بعد أن قرأ و هو في مصر لابن خلدون والغزالي.

وعمل جاهدا على محاول الإنغماس في المجتمع الفرنسي، وإقامة الصلات الوثيقة مع نمط حياة الفرنسيين الاجتماعي، غير أن طبيعته الشرقية الخجولة، والانعزالية التي ميزت شخصيته لم تمكنه من الذهاب بعيداً في هذا الإتجاه، في نفس هذه الفترة تعرف إلى فتاة فرنسية إسمها "سلافا" تدرس معه في الجامعة، وربطتهما علاقة حب رومانسية.

عاد بعدها إلى مصر واشتغل في سلك القضاء، حيث رأس نيابة محافظة "بني سويف"، ثم ترأس نيابة "طنطا" 1891م، ولعل الأمر الذي قلب حياته رأساً على عقب وهو وقوع أبرز قادة الثورة العربية وعلى رأسهم "عبد الله النديم" في قبضة الدولة، حيث تم تقديمه لقاسم أمين الذي يشغل رئيس النيابة، فأكرم لقاءه، وهياً له ظروف حسنة، بل وسعى

مع كبار المسؤولين لإطلاق سراحه ،ونفس الأمر قام به مع الطلبة المقبوض عليهم في التظاهرات، بل كان يخفي بعضهم حتى يستصدر له العفو من السلطات.

عُين نائب قاضي في محكمة الاستئناف في 1892م ،ثم رُقي بعد عامين إلى منصب مستشار، وكان يومئذ في الحادية والثلاثين من عمره.

اعتبر قاسم قاضيا وكاتبًا وأديبا فذا ومصالحا اجتماعيا، كان يصب كل اهتمامه للدعوة للحرية الاجتماعية وتحقيق العدالة واعتبر التربية أساس النهضة القومية متأثرا بفكر الشيخ محمد عبده الإصلاحية.

انجازاته العلمية :

لعل اهتمام قاسم أمين بالإصلاح التربوي والاجتماعي كان دافع له ليكتب في جريدة المؤيد أطلق عليها "أسباب ونتائج" أو "حكم ومواعظ" ، أصدر كتابه " المصريون" عام 1894 كان بمثابة رد على ،وبعده كتاب " تحرير المرأة " سنة 1899 ، ويختمه بكتاب " المرأة الجديدة" عام 1901.

أهم قضية خصص لها قاسم أمين فكره وحياته هي قضية المرأة، حمل أمين فكرة أن المرأة أساس المجتمع ،وتؤدي إلى صنع جيل ينجب لنا أفراد صالحين ، فعمل على الدعوة إلى تحرير المرأة المسلمة من قيودها الماضية وتقتدي بالمرأة الغربية، وأعلن بدون مدارات أن التمسك بالماضي هو من الأهواء التي يجب أن ينهض الجميع لمحاربتها، ورأى أن داء المجتمعات العربية هو توقع المرأة العربية والعلاج هو المدنية الغربية، فالغربيين في رأيه قد وصلوا إلى درجة عالية من الأدب والتربية مثل تقدمهم في التقنية العلوم .

فكان تلخيص لجملة افكاره في كتابه المعنون "تحرير المرأة" الذي تحدث فيه عن الحجاب وتعدد الزوجات والطلاق، وأثبت أن العزلة بين المرأة والرجل لم تكن أساسا من أسس الشريعة، وأن لتعدد الزوجات والطلاق حدودا يجب أن يتقيد بها الرجل بها، ثم دعا

لتحرير المرأة لتخرج للمجتمع وتلم بشؤون الحياة. بهذا الكتاب زلزلت مصر وأثرت ضجة وعاصفة من الإحتجاجات والنقد ، وحمل الكتاب فكرتين مهمتين هما :

1- تعليم المرأة ومسألة الحجاب:

نجد قاسم أمين يدعو فيه إلى تربية المرأة وضرورة تعليم المرأة القراءة والكتابة ووجوب معرفتها لكافة العلوم والثقافات المختلفة ، فهذا الأمر يفيدوها في تربية أطفالها تربية صحيحة بعيدا عن الخرافات والبدع التي ينكرها الدين و يرفضها العقل فيقول : " فإذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على أصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد وأجالت النظر في تاريخ الأمم ووقفت على شئ من علم الهيئة الطبيعية وكانت حياة ذلك كله في نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية إستعد عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات والأباطيل التي تفتك الآن بعقول النساء" وفي موضع آخر يقول "المرأة محتاجة إلى التعليم لتكون إنسانا يعقل ويريد."

ثم يقوم بشن هجوما شرسا على الحجاب الإسلامي كون يعتبر أحد الحواجز التي تمنع تعليم المرأة وتثقيفها "وكل ما يستميل النفس إلى المطالعة والدرس لا يتوفر للمرأة مع حجابها" وفي موضع آخر "لأن الحجاب يحبس المرأة في دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولا تعرف إلا ما يقع من سفاسف الحوادث ويحول بينها وبين العالم الحي وهو عالم الفكر والحركة والعمل." كتاب " تحرير المرأة " ص72.

ويضيف "على أن القول بأن الحجاب موجب العفة وعدمه مجلبة الفساد قول لا يمكن الإستدلال عليه لأنه لم يقم أحد إلى الآن بإحصاء عام يمكن أن نعرف به عدد وقائع الفحش بالضبط والدقة في البلاد التي تعيش فيها النساء تحت الحجاب وفي البلاد الأخرى التي تتمتع فيها بحريته ثم ينتقل إلى مهاجمة النقاب فيقول " والحق أن الإنتقاب والتبرقع ليسا

من المشروعات الإسلامية لا للتعب ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام." كتاب " تحرير المرأة " ص 64

وإن ظهر نوع من تناقض في كلامه حول هذه المسألة فمرة يراه عادة قديمة وبدعة مستحدثة ومرة أخرى يراه ميزة خاصة فضل الله بها زوجات النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرهن من نساء المسلمين ففي تفسيره لقول الله تعالى (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) إلى قوله (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء).

2- دعوته إلى الإقتداء بالغرب:

ان كثرة الإعجاب التي يظهرها قاسم أمين جليلة بالنسبة للنساء الغرب خاصة في أمريكا بخصوص تمتعهن بالحرية و العلم و الأدب فيقول : " إن نساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعا بالحرية وهن أكثر اختلاطا بالرجال حتى ان البنات في صباهن يتعلمن مع الصبيان في مدرسة واحدة فتقعد البنت بجانب الصبي لتلقي العلوم ومع هذا يقول المطلعون على أحوال أمريكا أن نساءها أحفظ للأعراض وأقوم أخلاقا من غيرهن وينسبون صلاحهن إلى شدة الاختلاط" كتاب "تحرير المرأة ص 77

لقد لقي كتاب تحرير المرأة ردود فعل متفاوتة لم تقتصر فقط على المتدينين بل حتى كثير من الأدباء والمفكرين والمصلحين أمثال قاسم محمد طلعت بكتاب "فصل الخطاب في المرأة والحجاب" ومحمد فريد وجدي بكتاب "المرأة المسلمة"، غير أن هذه الانتقادات لم تزد قاسم أمين إلا اصرارا ،وقام بدراسة كافة المقالات و الكتب التي تنتقده ورد عليهم بعد سنتين بكتابه "المرأة الجديدة" عام 1901 ، فطالب بإقامة تشريع يكفل للمرأة حقوقها وبحقوق المرأة السياسية وأهداه لصديقه الزعيم سعد زغلول.

وقد اعتمد في طرح أفكاره مبدئين أساسيين هما :

المبدأ الأول: أنه يرى أن أحكام الشرع في هذه المسائل ليست أحكامًا ثابتة، بل هي

أحكام متغيرة مع الزمان والمكان، ويشرح ذلك في هذه العبارة:

(الشريعة الإسلامية إنما هي كليات وحدود عامة، ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حُقَّ لها أن تكون شرعًا يمكن أن يجد فيه كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحهما) ثم يقول: (فالأحكام المبنية على ما يجري من العوائد والمعاملات فهي قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان، فتبين لنا من ذلك أن لنا في مأكلا ومشربنا وجميع شؤون حياتنا العمومية والخصوصية في أن نتخير ما يليق بنا، ويتفق مع مصالحنا بشرط ألا نخرج عن تلك الحدود العامة).

واستنادًا على هذا المبدأ الواسع الفضفاض يرى أن الإسلام يمكن أن يتلاءم ببساطة مع كل التطورات ويقول: (مع أنه من المهم أن نلتفت إلى التمدن الإسلامي القديم، ونرجع إليه، ونقف على ظواهره وخفاياه لأنه يحتوي على كثير من أصول حالتنا الحاضرة، ولكن من الخطأ أن ننسخ منه صورة ونحتذي مثال ما كان فيه سواء بسواء؛ لأن كثيرًا من ظواهر هذا التمدن لا يمكن أن يدخل في نظام معيشتنا الحالية).

والمبدأ الثاني يرى قاسم أمين هناك اقاويل كثيرة تشكل الدين مثل النصائح و المواعظ و الحكم وهي ليست التزامات وفروض دينية، بالإضافة الذي يستخدمه قاسم أمين هو «أن أقوال النبيلا تشكل كلها جزءًا من الدين، فمن الطبيعي أن نُنجي من هذه الأقوال تلك المحادثات الأليفة والنصائح الخلقية والحكم الفلسفية التي لا تشكل التزامات وواجبات دينية، كما يجب أن ننحي أيضًا كل ما لا علاقة له بالفقه والتشريع، وتبقى بعد ذلك الأحاديث القليلة التي تفسر أو تكمل التوجيهات التي يتضمنها القرآن الكريم، بعد تحقق جاد من روايتها، أو بملاحظة مطابقتها مع نص القرآن أو روحه.

ومن خلل هذين المبدئين دعا المرأة إلى ترك الحجاب ودعا إلى الاختلاط؛ كما أكد في مسألة الطلاق إلى تقييد الطلاق بجملة قوانين وإجراءات، واقترح اعتبار الطلاق غير ملزم إن لم يكن أمام القاضي، كما رفض تعدد الزوجات واعتبره احتقار للمرأة.

نقد وتقييم

ان كثير من أطروحات قاسم أمين لم تجانب الصواب فكثير من تقيّماته كانت غير عادلة، فهو لم يفرق بين "الحضارة" و"التاريخ"، كما أنه لم يلتفت إلى دراسة الحركات الفكرية والتيارات الثورية وأحزاب المعارضة التي استمرت طوال عصور التاريخ الإسلامي، تجاهد كي تضع في التطبيق ثمرات اجتهاد هذه الأمة الفكري في القانون والشورى والعدل الاجتماعي، وقد نشرت جريدة "الطاهر" عام 1906 اعترافات لقاسم أمين حيث قال " لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن إلى اقتفاء أثر الترك بل الإفرنج في (تحرير نسائهم) وغاليت في هذا المعنى حتى دعوتهم إلى تمزيق الحجاب وإشراك المرأة في كل أعمالهم ومآدبهم وولائهم ولكن ... أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس، فلقد تتبعت خطوات النساء من أحياء العاصمة والإسكندرية لأعرف درجة احترام الناس لهن وماذا يكون شأنهم معهن إذا خرجن حاسرات، فرأيت من فساد أخلاق الرجال وأخلاقهن بكل أسف ما جعلني أحمد الله ما خذل دعوتي واستنفر الناس إلى معارضتي ... رأيتهم ما مرت بهم امرأة او فتاة إلا تناولوا عليها بالسنة البذاءة، وما وجدت زحاماً فمرت به امرأة إلا تعرضوا لها بالأيدي والألسن " .

أما نوع الحضارة التي يدعو قاسم أمين إليها فقد اظهر تعصبه ضد الفكر الإسلامي و تأثره المبالغ للحضارة الغربية عندما أقر أن التمدن الإسلامي ليس فيه أي شيء حضاري يصلح للعطاء المعاصر !!

توفي قاسم أمين عام 1908، حيث تعددت السيناريوهات حول وفاته ، فطبيب العائلة يقرب أنه مات بنوبة قلبية أما صديقه زعيم سعد باشا زغلول فله رأي ، فهو يؤكد على انتحار قاسم أمين .

قائمة المصادر و المراجع :

1-قاسم أمين ، المرأة الجديدة ، مطبعة الشعب ، القاهرة ،سنة 1911

2-قاسم أمين ، تحرير المرأة ،دار الكتاب المصري،2012

3-ماهر حسني فهمي ، قاسم أمين ، مطبعة مصر

4-محمد عمارة ، قاسم أمين : الأعمال الكاملة ، دار الشروق ،

5- محمد عمارة ،قاسم أمين :تحرير المرأة و التمدن الإسلامي ،دار الشروق ،

القاهرة ،سنة 1988 ، الطبعة الأولى.

6-محمد طلعت حرب ،تربية المرأة والحجاب ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت،سنة

1899